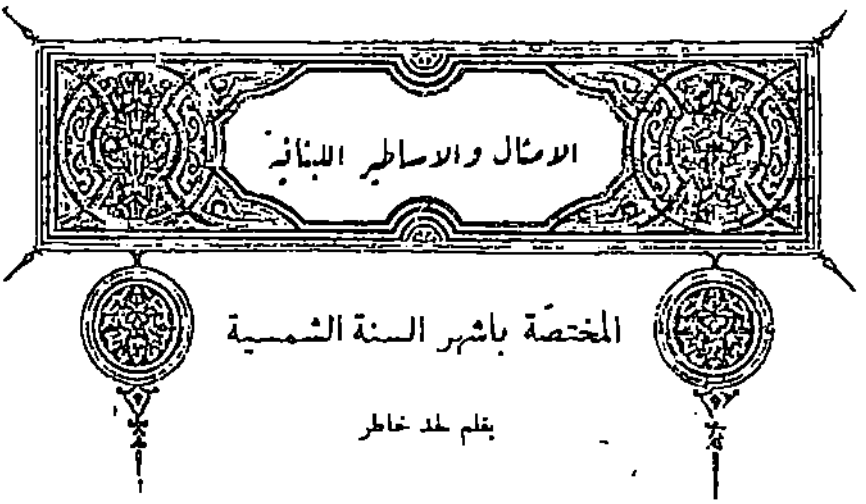

١

تمهيد

الفائدة من تدوين هذه الاساطير

يتناقل اللبنانيون في احاديثهم عن اشهر السنة الشمسية وما يتعلق بها عبارات واساطير عامية تجري على السنتهم مجرى الامثال والشواهد ، توارثوها خلفاً عن سالف من اجيال متفاوتة ، وهي موضوعة في الاصل لحكمة او موعظة بعد طول تجربة وخبرة ، فكانت ثمرة الكد والملاحظة وزبدة الذكاء والفطنة وسعة الاطلاع في مختلف الشؤون العمرانية ، ولاسيما الزراعة والصناعة وتربية الماشية واحوال الفلك وقواعد علم الصحة ونحو ذلك مما له علاقة بالحياة الشعبية اليومية في لبنان . لذلك رأيناها تقوى على غير الايام وتجتاز الأجيال مصونة على صفائح الصدور حتى وصلت الينا .

على انها الان اصبحت تواجه خطراً يتهددها بالضياع والنسيان الا وهو خطر ما نشاهده يوماً بعد آخر من التطور الفكري الآخذ بالانتشار والحافز بابنائه هذه البلاد الى ترك كل قديم من متروكات الآباء والاجداد ، حتى ما كان منها حسناً مفيداً . فلاجل دفع هذا الخطر اقبلتُ على تدوين هذه

الامثال والتعابير، وتعليق شروح عليها تقرب متناولها وتوضح رموزها ومدلولاتها ، وتزيل ما علق ببعضها من شوائب التحريف والتشويه تسهيلاً للانتفاع بها والاستعانة بطالعتها على استجلاء عدة نقاط اخلاقية من تاريخنا الوطني لا تزال غامضة بسبب قعود مؤرخينا القدماء عن بحثها وقصر ما كتبوه في مؤلفاتهم على اخبار الحكام وشؤون السياسة ، مهداً للكلام عن كل شهر بكلمة عن معناه واصل وضعه ، مقدماً على الفصول لمحة تاريخية عن نشأة التقاويم وتطوراتها في سياق الاجيال . وهو بحث يرمي الى ابراز صورة حية للحياة الشعبية اللبنانية الصميمة التي كان عليها الآباء والجدود ، واستبقاء تلك المسحة الخاصة المزيدة لاستقلالنا الخلقي المعدود في رأس الادلة على ما كان لنا من كيان متفرد واستقلال اداري ممتاز في تاريخنا السياسي.

نشأة التقاويم وتطوراتها

بعد ان نشأ الانسان في صدر الخليقة رأى نفسه محتاجاً الى وسيلة يقيس بها الوقت فاستنبط لذلك السنين والاشهر . ويقدّر المفكرون ان اجتهاده في هذا السبيل قاده بادئ بدء الى الاعتماد على المظاهر الفلكية ، ولاسيما ما كان منها اكثر بروزاً كالقمر فانه رآه يسير على خطة واحدة في مختلف وجوهه وتتابع دوراته ، فاتخذ كلاً من تلك الدورات عقداً تاريخياً قائماً بنفسه سماه شهراً يؤيد ذلك معنى كلمة « شهر » فانه بالعبرانية، احدى لغات الاقدمين ، « القمر الجديد » . وقد جاء في التوراة بهذا المعنى : « القمر نبأ الازمنة وعلامة الدهر . هو علامة العيد وباسمه سمي الشهر . » هذا الى ما تجده عند بعض الشعوب من التعبير عن الشهر والقمر بلفظ واحد .

ثم لوحظ ان هناك دورات زمنية اخرى اطول من الاولى تشتمل على الفصول الاربعة وتجري تباعاً على وتيرة واحدة من غير تغيير ، فاتخذ كلٌ منها عقداً تاريخياً آخر سمي « سنة » . ووجد ان القمر يدور في اثناء هذا العقد اثنتي عشرة دورة على التقريب فتقررت سنته اثني عشر جزءاً قوام كل جزء قمرٌ واحد من مولده الى خفيته . وهذا بالارجح الاصل الاقرب في نشأة السنين

والاشهر في طورهما الاول ، ومنه يستدل على ان التقويم القمري كان اقدم في الاستنباط والاستعمال من التقويم الشمسي.

ولم يكن للاشهر والايام في الابتداء اسماء خاصة بل كانت تسمى بالاعداد الترتيبيَّة . فكانوا يقولون مثلاً : الشهر الاول والثاني والثالث الى آخر السنة، واليوم الاول والثاني والثالث الى آخر الشهر ، يؤيد ذلك نصوص الكتاب في اسفار موسى ، واسماء بعض الاشهر الرومانية التي وضعها روملوس ، باني رومية تواول ملك عليها ، وهي : « سبتمبر واكتوبر ونوفمبر ودسمبر » فان معناها السابع والثامن والتاسع والعاشر.

وبعد مرور زمان لا يُعلم مقداره بالتدقيق اخذوا يطلقون على الاشهر اسماء خاصة تدل على بعض اوصافها وما يقع فيها من المميزات الطبيعية والمظاهر الجوية او ما يظهر فيها من الموارد الزراعية ، ثم سموا بعضها باسماء بعض المهتمين وملوكهم تيمناً وتكريماً ، وقد اختلفت هذه الاسماء باختلاف الشعوب والزمان والحوادث.

اما الاسماء التي يستعملها النصارى اللبنانيون ، بل سائر النصارى الناطقين باللغات السامية ، ولاسيما العربية ، في جهات العالم فمأخوذة عن اصل بابلي ، إما وراثةً عن الفينيقيين الذين يظن انهم اقتبسوها في رحلاتهم التجارية الى بابل ، وإما اخذاً عن غزاة البابليين انفسهم الذين كثيراً ما شنوا الغارة على هذه البلاد ومدوا سلطانهم عليها ، وإما نقلاً عن العبرانيين الذين عادوا بتلك الاسماء من بابل بعد ان سبوا اليها. ومهما يكن من امر انتقالها فانه لمن الغرابة بمكان ان تثبت تلك الاسماء البابلية على حالها من اقدم عصور التاريخ حتى اليوم برغم ما تبدل عليها في سياق الايام من التطورات والتقلبات السياسية والاجتماعية.

وقسم العبرانيون الشهر اربعة اقسام سموها اسابيع لان كلاً منها تألف من ٧ ايام ، وكان عدد ٧ من الاعداد المقدسة عندهم . ولا تزال ايام الاسبوع بالعربية ذات اسماء تشعر باصلها العددي الترتيبي فان الاحد والاثنين والثلثاء والاربعاء والخميس ما هي الا الفاظ عدل بها عن اليوم الواحد او الاول والثاني والثالث والرابع والخامس. وليست هذه الاسماء كذلك في بعض اللغات الاوربية

لان الناطقين بهذه اللغات اخذوها عن اسماء الاسبوع عند قدماء المصريين الذين كانوا يخصون اليوم الاول بالشمس ، والثاني بالقمر ، والثالث بالمريخ ، والرابع بعطارد ، والخامس بالمشتري ، والسادس بالزهرة ، كما يظهر ذلك لمن تدبر معاني تلك الاسماء بالافرنسية مثلاً فان معنى « Lundi » ، يوم القمر ، و«Mardi» يوم المريخ الخ . . .

اما اليوم الاول فقد سمي بعد ظهور النصرانية عندهم بما معناه « يوم الرب» اكراماً لقيامة المخلص فيه . والسبت مأخوذ عن العبرانية ومعناه «يوم الراحة »

ولم يكن التقويم القمري في بداءته بالتقويم السديد ، لانه جعل السنة مؤلفة على التقريب من ٣٥٤ يوماً ، وعلى ذلك اخذت الاشهر التي خُصّت بالصيف تتراجع كل سنة بعض ايام الى الوراء . الى ان حلّ محلها الربيع فسائر الفصول على التوالي . مما اضطرّ العلماء الى تدارك هذا الخطاء بجعل السنة شمسية اي تابعة للمدة التي تقضيها الشمس منذ تحولها عن نقطة الاعتدال الربيعي الى ان تعود اليها .

وهذا الحساب الشمسي الجديد جعل السنة ٣٦٥ يوماً ، وهي في الصحيح اطول من ذلك بعض ساعات . فلما ملك الامبراطور يوليس قيصر من الرومانيين استقدم اليه في السنة ٤٦ قبل المسيح العالم الفلكي سوسيجنيس من مدينة الاسكندرية ، وعهد اليه في اصلاح الخلل المذكور . ففعل بان جعل السنة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً وست ساعات . والف من هذه الساعات الست المزيدة يوماً كاملاً ارتأى اضافته في كل سنة رابعة على آخر شباط . وسمي الحساب المصلح على هذا النحو « باليولي » نسبةً الى اسم الامبراطور ، ويُعرف عندنا بالشرقي . ولا يزال فريق من طوائفنا المسيحية يجري عليه حتى اليوم .

بيد ان هذا الاصلاح لم يؤدِ الى كمال التقويم . لان واضعه اراد تلافي ما ظهر من نقصان في الحساب السابق ، فوقع في الزيادة . وتفصيل ذلك ان السنة الشمسية تتألف على الاصح من ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٥٠ ثانية . فكان مقدار ما زاده الحساب اليولي كل سنة ١١ دقيقة و١٠ ثوان . وقد ادت هذه الزيادة كل ١٢٩ سنة الى تأليف يوم كامل . وبقيت هذه الايام المزيدة

يضاف بعضها الى بعض فاصبحت عشرة بعد بضعة عشر قرناً.

وعندئذٍ اتفق ان السعيد الذكر البابا غريغوريوس الثالث عشر كشف هذا الخطأ. واصدر في السنة ١٥٨٢ منشوراً يقضي باصلاحه وذلك بان حذف الايام العشرة المزيدة. وامر بان يبقى الحساب اليولي على حاله، على ان يحذف منه كل ١٢٩ سنة ذلك اليوم الذي كان يزيد سابقاً. وحسابه هذا يعد الاكمل حتى الآن وعليه يجري في هذا العصر السواد الاعظم في المعمور من جميع الجنسيات والمذاهب.

اما مدة السنة فلم تكن اثني عشر شهراً عند عامة الشعوب. بل تقلبت عليها الاحوال فكانت عند فريق اربعة اشهر، وعند غيرهم ستة، وجعلها روملوس عشرة تبتدئ من مارس (شهر المربخ) وتنتهي في دسمبر (الشهر العاشر) ثم زاد عليها نوماس بمبيليوس وقيل تركينيوس شهري جانوريوس وفبروارس المقابلين لشهري كانون الثاني وشباط من شهورنا.

ووقع مثل ذلك التقلب لمطلع السنة فكان عند الاقدمين زمن الاعتدال الربيعي الذي يقع عادة في ٢٥ اياول، واختاروه لذلك لانهم رأوا الحصاد وقطف الثمار وجمعها تنتهي فيه ويبدأ بعده بالقاء البذار للسنة الجديدة، وجعله آخرون زمن الاعتدال الربيعي الذي يقع عادةً في آذار، وذلك لانهم رأوا الطبيعة تتجدد فيه مستأنفة الحياة. وجعله غيرهم قلب الصيف زمن الغلال وحصد الزروع. وجعله المسيحيون حيناً في عيد الميلاد، وحيناً آخر في عيد الفصح، باعتبار تجدد العالم بميلاد المخلص وقيامته. وكان احد امبراطرة الرومان جعل مطلع العام في السنة ١٥٣ قبل المسيح اول شهر جانوريوس المقابل لكانون الثاني. فلم تلبث الممالك ان تبعت هذا الحساب رويداً رويداً الى ان عمّ استعماله في اوربة في اواسط القرن الثامن عشر. ومنها انتشر في العالم حتى كاد يعمه باسره في هذا العصر.

الكانونان الاول والثاني

قلما تميز الامثال والتقاليد العامية بين هذين الشهرين الحاملين اسماً واحداً ، فآثرنا الكلام عنهما في فصل واحد.

كانون لفظة بابلية معناها «فصل الشتاء». والكانون في السريانية «متوقد النار». ويأتي فيها بمعنى الحبوب من عدس وحمص وفول وما شاكل. والكانون في العربية الرجل الثقيل . ولعلهم اطلقوه على هذين الشهرين لما شاهدوه فيهما من ثقل البرد وصعوبة الحركة.

اما الاول منهما فيبدأ فصل الشتاء في ٢١ منه ، ويقال ان الشمس تدخل حينذاك في برج الجدي . وله القاب منها « الثائب ، وشهر الجليد والصقيع ، وشهر الدخان ، والشهر المقدس » واسمه الافرنجي « دسمبر » من « ديسم » اللاتينية بمعنى العاشر.

وفي كانون الثاني تنتقل الشمس الى برج الدلو . ويصوّره الافرنج بهيئة شيخ مسنّ يسير متثاقلاً ، وقد حمل على ظهره زنبيلاً شحنه بالالعاب ليقدمها هدايا لصغار الاولاد بمناسبة عيد رأس السنة الواقع في اوله . يقابله في الافرنسية « جانفيه » من « جانوريوس » اللاتينية المأخوذة من « جانوس » وهو اسم اله روماني ذي وجهين ، يرمزون بهما الى انه يودّع السنة الماضية باحدهما ويستقبل الآتية بالآخر . ويصوّرون هذا الاله بهيئة رجل واقف ، وفي احدى يديه عصا ، ووجهاه ينظران الى جهتين مختلفتين . وفي ذلك مغزى لطيف يشير الى ما يجب ان يفعله المرء في اول العام من التطلع الى الماضي والمستقبل متخذاً العظات منهما لاصلاح شؤونه.

***

اما كانون في لبنان فتكون اوراق الاشجار قد تناثرت فيه بتأثير البرد ، واصبحت الارض جرداء خالية من الخضرة ، ذات منظر كئيب ، فتقول العامة في ذلك :« كانون الابرد خلّا الشجر امرد ». ولكن هناك اشجاراً تحتفظ بورقها

ولا يؤثر فيها برد كانون اخصها السنديان والصنوبر والزيتون فيقولون فيها : «كل الاشجار تتعرّى في كانون ما عدا العفص والصنوبر والزيتون .»

ويشتدّ البرد في كانون ، وتتساقط الثلوج ، فيمتنع الناس من الزيارات والاسفار والسعي في سبيل الرزق وامتيار المآكل. ولهم في ذلك اقوال يتناقلونها تنبّه الناس الى ضرورة ادّخار المؤن والملابس والوقود لمثل هذا الفصل البارد ، والى وجوب الاقامة فيه داخل البيوت الى جانب النيران وعدم التعرّض لاخطار الدنق والامراض بركوب متن الاسفار ، من ذلك قولهم :

« بين المواليد والقلندس (عيد الميلاد وعيد راس السنة) عند جارك لا تقرفص ، وان قرفصت لا تبات ، يصبح عليك الثلج قامات »

وقولهم الآخر : « بين الغطاس والميلادي (عيد الميلاد) اياك تسافر يا غادي »

و« في كانون كثّر النار في الكانون » للاستدفاء بها دفعاً لاذى البرد.

و« في كانون كنّ ، وعلى الفقير حنّ ». اي لازم منزلك مستكناً لان الامطار تعرقل مساعيك وتعرضك للاخطار واعطِ الفقير الذي تسوء حاله في هذا الفصل البارد العاطل من العمل والحركة.

و« في كانون كنّ ببيتك جوّات ملحك وزيتك. » اي اجلس في بيتك قريباً مما عندك من المؤن.

و« بين المواليد والدنوح (عيد الغطاس) عند جارك لا تروح ، وان رحت خذ زوادتك معك. » لان الامطار والثلوج قد تعيقك عن الرجوع فتحتاج الى الطعام.

و« في كانون الصمّ ، اقعد في بيتك واحتم. » ويقول غيرهم : « اقعد في بيتك وانطمّ. » ومعنى احتمّ الزم الدفء ، وانطم اي غطّ نفسك بالدثر دفعاً للبرد.

وتهبّ الاعاصير الشديدة الهوجاء في كانون فتقتلع الاشجار وتهدم المنازل وتقول العامة عنها : « رياح كانون شيبت النسور في الجو » والنسور يطول شبابها ولا تهرم . ولكن رياح كانون العنيفة بلتها على زعمهم بالشيب لفرط ما دفعتها اليه من الاهوال والاخطار التي جابتها بالشيب قبل اوانه.

وتكون ليالي كانون عادة ذات عتمة شديدة فيضرب اللبنانيون فيها المثل.

ومن اقوالهم فيها :« عتمة كانون اذا مدّ الانسان فيها اصبعه لا يراها ». و«عتمة كانون لا يعرف الذئب فيها مرقده » اي لا يهتدي اليه.

ويروون في مسامراتهم ان الذئب والفرس تناظرا في ايهما احد بصراً فقال الذئب :« رأيت شعرة سوداء بارض شحّار في عتمة كانون من مسافة اربع ساعات ». وقالت الفرس :« رأيت شعرة بيضاء في صحن لبن على قوزة ثلج في قرة تشرين »

وجاء في امثالهم بهذا المعنى :« ما في انقى من قرة تشرين ولا اظلم (اشد ظلاماً) من عتمة كانون »

وفي اول العقد الثالث من كانون الاول يكون الانقلاب الشمسي وهو غاية طول الليل وقصر النهار . ولكن العامة تجعل ذلك في ٤ منه ، يوم عيد البربارة ، وتقول في ذلك :« في عيد البربارة بياخذ النهار من الليل قدر نطة الغارة »

وتتفجر الينابيع في هذا الشهر فيقولون في ذلك : « في عيد البربارة بتطلع الماء من وكر الغارة .» اي لا يبقى مكان خالياً من الماء.

والهواء الشرقي في كانون نذير الثلج ومن اقوالهم في ذلك :« شرقي الكوانين ثلج .» على ان الهواء الشرقي اذا هب في الشهور الاخرى كان نذير الحر والنشوفة ويعرف عندهم « بالشارق »

ويستدلون من رعد كانون على تساقط الثلوج في شباط ويقولون في ذلك: « كل رعدة بكانون ثلجة في شباط »

وتتكاثف الغيوم في كانون فتحجب الشمس وتجعل الناس ييأسون من ظهورها ثانية لطول ايام انحجابها ، ويروون رواية تؤيد ذلك موجزها : ان اعرابياً جاء الى لبنان في شهر الحصاد وخبر حرارة شمسه . فلما جاء كانون وقرس البرد اخذ يرقب الشمس فلم يرها فسأل احدهم قائلاً :« يا اخا العرب هل شمس الحصيدة تعود ؟ » اجابه نعم تعود . قال البدوي :« والله لو عادت ما تعود بحرارتها .» اي انه لشدة ما ناله من البرد وطول انحجاب الشمس عنه اصبح يائساً من عود تلك الحرارة التي رآها في الصيف السابق

ويبدأ اللبنانيون من كانون الاول بغرس نضوب الاشجار على اختلافها .

ولقد تعرفوا بطول الاختبار ، وبما تعلموه عن اسلافهم ، ان النصوب التي تغرس في اول الشتاء تفوق بنموها وغضارتها النصوب التي تغرس في آخره . لذلك يقولون في امثالهم : « نصبة كانون الاول خير من نصبة عالم اول » يريدون بذلك ان النصبة المغروسة في كانون الاول من السنة الجارية تفضل النصبة المغروسة في شهر آخر متأخر من السنة التي قبلها ويقولون ايضاً : « نصبة كانون الثاني قوام بتصير تاني . » ومعناه النصبة التي تغرس في كانون الثاني لا تلبث ان تصير جسراً تسقف به المنازل ، ومن اقوالهم بهذا المعنى : « احسن زراعة في القطاعة . » اي قطاعة الميلاد من ١٣ الى ٢٤ كانون الاول ، وقولهم : « الاشجار الضخمة لا تروى الا من مطر كانون » لانه يكون عادة اغزر امطار الشتاء . وكانون عندهم « فحل الشتاء » اي ان الارض لا تعطي الغلال الوفيرة اذا لم ترَ كفاية في كانون .

وفي كانون يشذبون الزيتون ، ويزرعون منه النصوب . ويروون ان اميراً مرّ بشيخ لبناني فرآه يزرع الزيتون في برد كانون فاعجب بهذا الرجل العاجز يكلف نفسه مثل هذا العناء ، ويزرع شجراً لايثمر الا بعد سنين طويلة يكون فيها الزارع قد صار في عالم الابدية ، فسأله عن ذلك فقال : « ايها الامير اورثنا من قبلنا ونحن نورث من بعدنا . » فامر له الامير بصلة . قال الشيخ : « ايها الامير قلت ان هذا الشجر غير معجل الغلة وقد شاء الله ان يغلّ في سنته الاولى » فضحك الامير وامر له بصلة ثانية . فقال الشيخ : « وقد اعطى غلتين . » فمضى الامير وهو معجب بحكمة الشيخ وهمته . ومثل هذا الشيخ كثير ، والحمد لله ، بين شيوخ لبنان .

(للكلام صلة)